الصوفية فى الإسلام

للكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد

الصوفية من حيث الموضوع نوعان عظيمان : نوع العقل والمعرفة ، ونوع القلب والرياضة .

والصوفية من حيث موقفها من الدنيا كذلك نوعان : نوع يتخطاها وينبذها ، ونوع يمشى فيها ويصل منها الى الله ، ويتأدى من الخلق الى الخالق جل وعلا .

وكل هذه المذاهب عرف فى الاسلام على أوفاه ، فمن الصوفية العقليين طلاب المعرفة من يحسب فى عداد الفلاسفة الافذاذ ، ولا نعرف فى عقول الفلاسفة عقلا يفوق عقل الامام الغزالى فى قوة التفكير ، ولا نعرف موضوعا من موضوعات الحكمة الالهية لم يلتفت اليه محيى الدين بن عربى . وقد قيل : ان ذا النون المصرى ، كان فى طبقة جابر بن حيان فى علوم الكيمياء ، وانه كان من الباحثين فى طلاسم الآثار الفرعونية .

وهؤلاء الصوفيون العقليون يذهبون بالعقل الى غاية حدوده ولا يتهيبون الشكوك والاعتراضات ، بل يقولون بلسان الغزالى : ان الشك أول مراتب اليقين ، ولكنهم متى بلغوا بالعقل غايته ملكتهم نشوة الوجدان فأسلموا أمرهم كله الى الايمان .

وليس اشتغالهم بالعقل مانعا لهم أن يشتغلوا بالرياضة النفسية ، وانما يشتهرون بأفكارهم لانها الصلة بينهم وبين تلاميذهم ومريديهم وقرائهم ، وتغلب شهرتهم بالفكر ، على شهرتهم بالرياضة .

أما الصوفيون القلبيون ، فهم يلتمسون المعرفة المباشرة برياضة النفس على قمع الشهوات ، وعندهم أن شهوات الانسان هى الحائل بينه وبين النور ، فاذا ملك زمامها ، وأفلت من قيودها ، تكشف له النور فوصل الى مرتبة العارفين ، وأغناه صفاء النفس عن دراسة الدارسين ، وبحوث الباحثين .

والصوفية من حيث علاقتها بالدنيا نوعان كما تقدم ، نوع يرفضها لانها وهم وغشاوة مزيفة كالطلاء الذى يوضع على المعدن الخسيس ليخيل الى الانظار أنه معدن نفيس .

ونوع آخر يخوض غمار الدنيا ليبتليها ويمتحن نفسه بتجاربها وغوايتها ، وعنده أنها جميلة لانها من خلق الله ، وكل ما يخلقه الله جميل .

وهذا النوع من الصوفية أقرب أنواعها الى الاسلام ، وليس على المسلم حرج أن يرى الدنيا ظاهرا خداعا ، وباطنا صادقا أجمل من ظاهرها ، فان قصة الخضر مع موسى عليهما السلام تدور كلها على التفرقة بين الظواهر والبواطن فى الاحكام والنيات .

الا أن الصوفى المسلم يقاوم مطامع الدنيا لانها تحجبه عن حقائقها العليا . ويضربون المثل لذلك بالغزال الظمآن فى الصحراء . فلا حرج عليه أن يطلب الرى من الماء ، ولكنه اذا غفل عن نفسه ، لم يسلم من خداع السراب ، فانقاد الى الهلاك . فاذا أصابه الظمأ فليعلم موارد الماء وليكن على حذر من موارد السراب ، وليفرق ـ كما يقولون ـ بين سراب لا شراب فيه ، وبين شراب لا سراب حوله . وتلك هى الرياضة التى تستفاد من قمع الشهوات .

وكثيرا ما يبحث الاوربيون فى التصوف الاسلامى ويقصدون به الكلام على أشخاص المتصوفين الذين ظهروا فى البلاد الاسلامية .

وقليلا ما يبحثون فى هذا التصوف ويقصدون به مذاهب التصوف التى يسمح بها الاسلام .

فالدين الاسلامى قد انتشر فى أقطار شاسعة كانت فيها من قبله عبادات وثنية وغير وثنية ، وقد تسرب بعضها الى أبناء تلك الاقطار واختلط بعضها بالعقائد الاسلامية من طريق الوراثة والاستمرار ، ولم يسلم التصوف من تلك الاخلاط ، فاقترن فى أقوال الناس من المنتسبين الى الاسلام ، بما يجوز وما لا يجوز .

وعلى الجملة يمكن أن يقال : ان الاسلام ينكر من تلك المذاهب مذهبين ، ينكر مذهب الحلول ، كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود .

فلا يقر الاسلام مذهبا يقول بحلول الله فى جسد انسان ، ولا يقر مذهب القائلين بفناء الذات الانسانية فى الذات الالهية ، واذا تحدث المتصوف المسلم عن الفناء ، فسره بفناء الشهوات ، أوفناء الانانية ، وحلول محبة الله محلها من القلوب والارواح .

ولا يقر الاسلام مذهبا يقول بوحدة الوجود ، أو يقول بأن الله هو مجموعة هذه الموجودات ، وأن الكون كله بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله .

واذا أجاز المتصوف المسلم معنى من معانى الوحدة الوجودية فهى عنده وحدة الفضائل الالهية ، ووحدة التوحيد ٠

وقد يوفق المسلم الصوفى بين الظاهر والباطن فيقول : ان الشريعة من غير الحقيقة رياء وكذب ، وان الحقيقة من غير الشريعة اباحة وفسوق ٠

وقد يوفق بين الامور الدنيوية والامور الأخروية بمذهب جميل معتدل بين الطرفين ، فليس الزاهد عنده من لا يملك شيئا ، بل الزاهد عنده من لا يملكه شيء ٠ فهو مالك للدنيا ، غير مملوك لها بحال ٠

وبعد ٠٠ فان المهاتما غاندى لم يخطىء حين قال معقبا على دعوات الصوفى المسلم « الانصارى عبد الله » : اننا فى زمن الجحود بحاجة الى هذه الروح الصوفية التى تعبر عن جوهر الدين لجميع المؤمنين » ٠

ان أناسا من أبناء العصر الحاضر يحسبون الصوفية بقضها وقضيضها تراث قديم مهجور ، ولكنهم يعلمون كل يوم ، وسيعلمون غدا ، ان الانسان لن يستغنى فى حياته يوما واحدا عن الصوفية فى ناحية من نواحيها ٠ لان رياضة النفس ضرورة لازمة ، كرياضة الجسد ، وأكبر ما يلقاه الناس من عنت فى العصر الحاضر فانما هو افلات زمام الانسان العصرى من يديه ، ولا غنى له يوما عن ذلك الزمام ، ولا غنى له فى جسده عن بعض الحرمان باختياره ٠٠ وعن بعض الشدة برضاه ، وأحرى أن يكون ذلك شأنه فى سياسة النفوس ٠

عباس محمود العقاد

* * *